الطبيعة .. محفّز .. للحنين ..

بقلم: الأستاذ عبد الله طربيه

شعر الحنين لدى ابن خفاجة وتأثر الشاعر العبري ابن عزرا به

لقد هام الإنسان بالطبيعة منذ أن فتح عينيه على محاسنها وتطلّع بحب وشغف إلى جمالها ، روضها ورونق سمائها . وقد وجد الشاعر مرتعًا لخياله ومقيلاً لأفكاره . فقد تجاوبت لوحيه واستلهامه ، باهتزاز الأزهار والأنوار ، انسياب الجداول ، وتلألؤ الطل ، مما جعل الشاعر يجود وينطق لوحاتٍ وصوراً ناطقة .

إن هذا الشعر - وأخصّ بالذكر شعر الطبيعة الخلابة الذي ترعرع ونما في أندلس العرب - كان ركنًا من أركان الأدب العربي الحديث الذي نتج عنه شعر يمثل تعلق الشعراء الأندلسيين ببيئتهم وتفضيلها على غيرها من البيئات .

ونقف عند الشاعر الجنّان ، صنوبري الأندلس ابن خفاجة ، الذي يمكن اعتباره وبحق من أعظم شعراء الطبيعة وأول من قال شعر الحنين إلى الوطن الذي يجذبه بطبيعته ومناظره وحدائقه الزاهية . هذا الشعر الذي يعبر عن خلجات النفس وما ألمّ بها من ترحال وتهجير ومطاردة بين بساتينها وجبالها وأوديتها .

كان هذا اللون من الشعر رمزاً للتقارب والتفاهم الحضاري الذي حققه الشعراء

المسلمون والشعراء اليهود .

من أجل توضيح هذا الغرض فإنني سأتطرق لشعر الحنين لدى الشاعر اليهودي موسى ابن عزرا الذي عبّر عن حنينه إلى مدينة غرناطة التي كانت تشدّه إليها وهو مجليّ في الغربة ، وأود أن أذكر أن الشعراء اليهود نظموا أشعارهم في الغربة وفي الجلاء أي في الأندلس واعتبروا وجودهم بها وجوداً مؤقتًا ، ولذلك كانت معظم أشعارهم مبطنة بصلوات وأمنيات للنجاة والخلاص ، ليعيدهم الله تعالى إلى وطنهم الذي حلموا به دائمًا ، بينما نلمس لدى موسى بن عزرا أنه كان يشعر بأن غرناطة هي بمثابة الأرض والوطن الذي يشدّه ، وأن أشعاره كانت شبيهة في موضوعاتها بشعر ابن خفاجة الذي ولد حسب المصادر في نفس الفترة التي ولد بها ابن عزرا ٤٥٠هـ (١٠٥٨) .

فالشاعران وصفا المحنة التي حلت بهما وبوطنهما الأول ـ جزيرة شقر وغرناطة ـ فأخذا يشكوان الزمان ولؤم الناس ، وفي آخر أيامهما اعترتهما الوحشة فبكيا صباهما وتنسكا إلى أن وافتهما المنية في نفس السنة ١١٣٨ .

لقد امتدّ حكم الإسلام في إسبانيا ـ الأندلس ما يربو على ثمانية قرون ، تعاقب فيها على الحكم ملوك وأمراء تعددت أهدافهم ، وامتزجت ميولهم ونزعاتهم ، وما يهمنا في هذا البحث هو فترة حكم ملوك الطوائف والمرابطين ، وشعراء هذه الفترة التي امتدت ما بين القرن العاشر والثاني عشر .

لقد تقاسم الملوك حكم البلاد ، ونصّب على كل ضيعة أو مدينة ملكٌ أو أمير ، يحكمها كيفما شاء ويتحالف مع من يشاء ، ضد من يشاء من المسلمين وغير المسلمين، ففسدت البلاد وسادت الفوضى وأصبحت فريسة سائغة للأعداء ، وهرب السكان خوفًا وفزعًا ، وعانى الشعراء كثيراً من الاحتلال، حيث طاردهم الأعداء ، واضطروا إلى ترك بيوتهم وقراهم بحثًا عن الأمان والاستقرار ، نتيجة للأوضاع المزرية التي آلوا إليها في الاغتراب عن وطنهم الأم ، كل ذلك نما عندهم نزعة شعرية تعبّر عن حنينهم إلى الوطن ما انفكّ يعصر القلوب ويهيج القرائح .

عاش اليهود في إسبانيا العربية عيشة هنيئة راضية ، امتازت بالتعاون في جميع

المجالات الاجتماعية والسياسية والثقافية[1].

لقد وثق العرب باليهود وكانوا يسلمونهم بعض المناصب المحترمة بعد الفتح الإسلامي مباشرة ، ويجعلونهم حماة لها ، وتركوا لهم حرية العبادة ، وكان لليهود الفضل في نشر الثقافة الإسلامية ، فكان منهم المترجمون الذين ساهموا في تسيير الحضارة والعلوم العربية عن طريق معرفتهم في اللغة العربية علاوة على اللغة العبرية .

كان لليهود رأي واضح وإيمان مطلق بأن الشعر العربي الأندلسي لا يضاهيه شعر آخر، فالشاعر العربي مطبوع وما عداه فهم مصنوع ، الشاعر العربي خصب الخيال وقد زين شعره ونمّقه ببديع الكلام مستمداً عناصر الطبيعة في نظم الشعر ، وقد اهتم الشعراء اليهود بمحاكاة هذا اللون من الشعر فجاء مطابقًا له في عناصره وموضوعاته وفي صوره الشعرية .

سأحاول في هذه الدراسة أن أصل بالقارئ إلى موازنة شعرية تظهر مدى تأثّر الشعر العبري بالشعر العربي في موضوعاته المختلفة .

في هذا الفصل سأبحث في شعر الحنين لدى الشاعر العربي ابن خفاجة الذي عاش ثلاثًا وثمانين سنة (٤٥٠-٥٣٣هـ) في جزيرة شُقر مدة أربعة وثلاثين حولاً في عهد ملوك الطوائف (٤٥٠-٤٨٤هـ) . لقد مارس الشعر أكثر من ستين سنة .

تقول المصادر الأدبية أنه لم يمدح في عصر الطوائف إلا المعتصم بن صمادح ، وفي عهد الطوائف توقف عن الشعر ، ولما احتل المرابطون الأندلس تخلى عن صمته وشارك في مدح أمراء الأندلس ، تقديراً لهم ، وليس تكسبًا ، لأنه يعتبر الشعر محببًا لا متكسبًا .

إن شعر الطبيعة عند ابن خفاجة يمثل العمود الفقري فيما نظمه من غزل وخمر ولهو ومديح ، وشعر الحنين يعتبر لونًا جديداً لدى الشعراء الذين اغتربوا عن أوطانهم .

مقارنة لهذا الشاعر نتطرق للشاعر اليهودي ، موسى ابن عزرا (١١٣٨-١٠٥٥) الذي يعتبر باعتقاد الباحث ישראל לוין[2] من الشعراء القادرين على ملكة الشعر وبديع الكلام في الشعر العربي

١ حبيب حزان ، الأدب الأندلسي من الاحتلال إلى الارتحال ، ص٤٥ ، ج١ .

٢ לוין , ישראל , הבכי על החורבות , עמ'278 .

مما جعله قادراً على طرق هذا اللون من الشعر وجعل الطبيعة في مقدمة الغزل والخمر والمديح .

لكي ندعم الرأي بأن ابن عزرا كان قد تأثر بالشعر العربي الأندلسي ، فلا بد من التطرق لبعض المقطوعات الشعرية الموازية لشعر ابن خفاجة الذي عاش معه في نفس الزمان والمكان .

القصيدة الآتية لابن عزرا :

מעונות מענותי נאלמות
ואזניהם שמוע לי ערלות

ואנו שעריהם מבלי איש
ודרכיהם בלי עובר אבלות

ענן עיני לאט יזיל דמעות
ואך המה בדם לבי מהולות

כאילו שקתות מים בקרבי
וראשי ים ובצלעי מצולות

ומה הועיל בצעקי אל גדרות
פרוצות ממטר בכיי ובלות

יצאוני שכוניהם ועלו
ברגליהם לבבות האמולות

והלכו הם למסעיהם-וזכרם
יחזק הנפשות הנחלות

ובמקצעות מגוריהם קציעות
וריח אהליהם כאהלות

(הדיואן, עמ' ק"ט)[٣]

هذه القصيدة تعتبر من شعر الحنين الذي كتبه ابن عزرا ، نتيجة معاناته وتشرده وبعده عن أهله وأصدقائه ومحبيه ، فيها حنين لأيام جميلة ومجالس هنيئة قضاها بين أحضان الطبيعة ونوافير المياه .

في مطلع القصيدة يبكي أطلال بلده وبعده عنها ، يبكي طرقاتها الخالية ، بعد أن كانت مزدحمة بالمارة ، يبكي بيوتها وبواباتها ، وقد استعمل ابن عزرا عناصر من الطبيعة في شعره ، حين شبّه الغيوم وتساقط المطر بالبكاء والدموع .

أما ابن خفاجة فقد ترك مدينة شُقر ، وشقر قائمة على أرض تحيط بها المياه من ثلاث جهات ، وهي تابعة لمدينة بلنسية ، وتقع بينها وبين شاطبة في شرق الأندلس ، وقد اشتهرت بجمال موقعها ، وبما يحيط بها من مناظر طبيعية باهرة . ويظهر مما جاء في ديوانه أنه رحل عن بلده إلى العدوة الأفريقية عندما استولى السيد على بلنسية

٣ אבן עזרא , מושה , הדיואן , עמ' ק"ט .

عاصمة تلك الأقاليم سنة ٤٨٧هـ ، وقد تأثر الشاعر بسقوطها فقال :

عاثت بساحتك العدى يا دار
ومحا محاسنك البِلى والنار

فإذا تردد في جنابك ناظرٌ
طال اعتبارٌ فيك واستعبار

ارض تقاذفت الخطوب بأهلها
وتمخضت بخرابها الأقدار

كتبت يد الحدثان في عرصاتها
"لا أنت أنت ولا الديار ديار"

وفي القصيدة التالية «شمال فارقت اليمين» لابن خفاجة يصوّر الشاعر شوقه وحنينه إلى مسقط رأسه ، وملاعب صباه . إن موطنه عنده بمنزلة يده اليمنى وقد افتقدها وفارقها لتبقى يده اليسرى وحيدة محدودة العطاء :

رحلت عنكم ، ولي فؤادٌ
تنفض أضلاعه حنينًا

أجود فيكم بعِلقِ دمعٍ
كنت به قبلكم ضنينًا

يثور في وجنتي جيشًا
وكان في جفنه كمينًا

كأنني بعدكم شمال
وقد فارقت منكم يمينًا[٤]

نفس التعابير يمكن ملاحظتها لدى ابن عزرا في حنينه وشوقه إلى مسقط رأسه غرناطة التي يسميها "الدر رمون" قائلاً :

אם עוד ישיבני אלהים אל הדר
רמון דרכי יצלחו צלוח
(הדיואן, שיר ס"ו, ע' ס"ז)[٥]

كثيرة هي أشعار الحنين والشوق عند ابن خفاجة ، فيها يعبّر عن خلجات قلبه وحنينه إلى وطنه الذي أرغم على مغادرته قهراً ، لقد جاء شعره صادقًا لأنه يكتب عن ذاته وما حلّ به من أسى وحزن ، إنه يعكس وحدانيته وعزلته ، لأنه هُجِّر عنوة . وبلاد المهجر لا تناسب ذوقه ولا تروي ظمأه ، وقد عاش في الغربة أسيراً مقيداً .

حننت ، وقد ناح الحمام صبابة
وشقّ من الليل البهيم حداد
على حين شطّت بالحبائب نيّة،
وحالت فياف ، بيننا وبلاد[٦]

---

٤ ابن خفاجة ، الديوان ، ص٢٦٨ .
٥ אבן עזרא , הדיואן , עמ' ק"ט
٦ ابن خفاجة ، الديوان ، ص٧٩ .

وهذا يشيبه ما حدث مع ابن عزرا ، فهو قد هجر غرناطة عنوة بعد سقوطها بأيدي المرابطين ، ووصل إلى قشتالة وحيداً غريبًا ، فاشتد حنينه إلى وطنه وتمنى عودته إليه ، ليجدد العهد مع الطبيعة .

אשאף לארצותי עדי אומר חרבי
והם עומדות על תילם

إن ابن عزرا يتشوق لجنائن غرناطة المميزة برائحتها العطرية ، التي يرجو لو تهب وتصل إليه وتملأ صدره وتشفي علته .

רוחות בשמים עברו נשף בבית
רמון ועל הרי שניר נשבו
נא רחפו כמעט עלי אחי ואט
הבו לאפי מרקחיהם הבו
הבו שלום שוכני פאת-ים כי עלי
נפשי בני המערב יערבו
אשלח תלונתי אליהם על ידי
עב קל ועל כנפי כרוב ירכבו[٧]

إن ابن عزرا يأمل بالعودة إلى وطنه غرناطة ، لأن مكوثه بالغربة ، يسبب له الأرق وعدم الراحة والفشل ، وفي عودته يعيد شبابه ونجاحه ، ويتمنى لو يروي ظمأه من الوادي الكبير ويتمتع ببلاده الجميلة الخلابة ويلتقي الأحبة بين الجنائن وحفلات السمر والشراب .

אחר אצילי מערב איך תערב
שינה ואיך ימצא לבבי נוח
תשכח ימיני אם שכחתימו ואם
בלתי פניהם אתאבה לשמוח
אם-עוד ישיבני אלוהים אל הדר
רמון דרכי יצלחו צלוח
ובמי שניר ארוה אשר צחו ביום
נחלי עדנים נדלחו דלוח!
ארץ אשר בה נעמו חיי ומי
לחיי זמן לי נשטחו שטוח
אוחיל מעט לאל ואין מעצור קרוא
לדרור אסיר פרוד ולפקח קוח

(הדיואן, שיר סו, עמ' ס"ז) [٨]

نرى ابن خفاجة في الأبيات التالية لا يتمنى سوى أن يجمعه الله من جديد مع المحبين والخلان ، ويعيده إلى وطنه المتوقع أن يكون أجمل وأفضل مما كان عليه .

وهكذا أيضًا ابن عزرا لم يستطع أن يكون بغير ما كان عليه الشاعر العربي ، يطلب من الله سبحانه وتعالى أن يعيده إلى غرناطة ، ويطلب من النهر إبلاغ أشواقه وتحياته إلى أصدقائه ، ذلك النهر الذي أصبحت مياهه حمراء نتيجة الدموع

٧ אבן עזרא , הדיואן, עמי כו, שורות 43-46 .

٨ אבן עזרא , מושה , הדיואן , עמ' ס"ז

والدماء، فهذا التعبير الذي يجيش المشاعر الإنسانية ما كان إلا تعبيراً عن المشقة والمرارة والحسرة التي حلت بسبب الفراق والابتعاد ، وكلها كانت تكون محفزاً شديداً يشعل لهيب الشوق والحنين إلى غرناطة .

לך נחל אשר ילך לארץ
מגורי דוד קרא עליו שלומי
ומימך ואם כדם אדומים
אמר – לו כי דמעי הם ודמי
מסכתימו עלי נודו וחשקו
שניהם שלחו רקב בעצמי ...
(הדיואן, עמ' קכט) [9]

إن شعر الحنين لدى الشاعرين ابن خفاجة وابن عزرا يفيض بلوعة وحسرة الفراق ، والنزوح عن الوطن ثم الانقطاع عن الطبيعة الخلابة التي كانت مبتسمة لهما ، وأما بعد ذلك فقد بكت الأزهار وذبلت تضامنًا لما حل بهما من كوارث .

إن الحمام المغرد لدى ابن عزرا أصبح نائحًا يبكي ويتأوه لما جرى له من أحداث :

נהמה המות יונים עלי ענפי הדס
כי יזכרו פרוד ויתאוננו [10]

كذلك ابن خفاجة يستعين بجدول الماء وبطائر الحمام ليعبّر عن شعوره حين يشبّه خرير المياه بالبكاء والعويل ، وشدو الطير بالنياح إذ يقول :

ومرتبع حططتُ الرحل منه
بحيث الظلُّ والماء القراح
يحرم حسن منظره ملبكٌ
يحرِّم ، ملكهُ القدر المتاح
فجري ماء جدوله بكاءٌ
عليه ، وشدو طائره نياح

إن الشعر الصادق يعتبر مرآة الحياة العقلية والنفسية والأدبية التي يحياها الشاعر ، وهو شريط يسجّل عليه الشاعر خلجاته النفسية وأحاسيسه العاطفية بما حوته تلك الخلجات والأحاسيس من مشاعر الانبساط والتوتر ، ومن خفقات الوصال ولواعج الصدود ومن بسمات الأمل وسحائب اليأس .

ولم يكن شعر ابن خفاجة وابن عزرا إلا مرآة لهما ، ولقد كان في الحقيقة مسرحًا حيًا يقوم كل بيت فيه بتمثيل الدور الذي أسند إليه بأمانة وإخلاص .

---

٩ אבן עזרא , מושה , הדיואן , עמ' קכט .

١٠ אבן עזרא , מושה , הדיואן , עמ' קנג .

إن ابن عـزرا ضمّ إلى مـهـارته في الشعـر براعة في العلوم والفنون ، فكان عـــالمًا ضليعًا وشـاعـراً بليـغًا ، منح دقـة في الحس وصفاء في الشـعـور ، فـأنت تراه في بكائه وفي فرحه وفي غـزله وفي وصفه للطبيـعـة صادق الوجدان . فقد درس المجتمع واستقى الحكمة من مـــصـــادرها وارتشف العلم من منابعه . وحين تقـرأ له شعـراً تشعـر وكـأنك دخلت روضة نواحه ترى فيها ما يبهج العين ويسر الخاطر ويثير التفكير ويلقى بالعبر . تعرف كـيف يرسم بالألوان الجـمـيلة جـمـال الطبيعة وملذات هذه الحياة ، وبالإضافة إلى ذلك فقد وصل في الفترة الأخيرة من حياته إلى هدوء البال وراحة الضمير .

إن ابن عـزرا قـد عـبّر عن رأيه في الحـيـاة بقوله "إنني فـقـيـر غني ، مـسكين له رب ، وليس لك فـقـر أكبـر من الجـهل ، وليس لك إنسان منبوذ أكثر ممن يحب نفسه"[١١] .

بالمقابل نرى إن ابن خـفـاجـة كـانت نهـايتـه مخالفة لنهـاية ابن عـزرا ، فـقـد توصل في نهاية المطاف وهو في سن الثالثة والثمانين من العـمـر إلى الاعـتـراف بالواقع الحـقـيـقي الحتمي الذي لا بد أن يمر به كل إنســـان . وتعتبر هذه الفترة آخر لحظات وداعه للدنيا والطبيعة التي تغنّى بهـا ، فـيـظهـر في قصيدة «الجبل» متألمًا يذوب أسىً وقنوطًا .

والجبل يمثل رغـبـة الإنســان الفـاشلة في الفرار من القـــدر ، فليس من شيء ولا من أحد يستطيع أن يفلت من قبضته الصارمة ، وإن كانت الهمم التي تتسلق القمم المنيعة ، لا تنجو من الموت ، فـبـأي ملجأ يأمل المرء أن يعتصم !

وقلت وقد نكبتُ عنه لطيّةٍ
سلامٌ! فإنّا من مقيم وذاهب

١١ شعشوع ، سليم ، العصر الذهبي ، ص٨٥ .

المصادر

- غرنباوم فون غوستاف ، **دراسات في الأدب العربي** ، ترجمة : إحسان عباس وآخرين ، بيروت .

- شعشوع ، سليم ، **العصر الذهبي** ، رمات غان ، ١٩٩٠ .

- לוין ישראל, הבכי על **החורבות**, תרביץ ל"ו עמ' 278–296.

- לוין ישראל, **מחקרים ביצירתו של רמב"ע**, אונ' ת"א תשנ"ב.

- בן עזרא, מושה, **הדיואן**, שוקן, ברלין 1935 (הוצאת בראדי ת"ם).

- ابن خفاجة ، **الديوان** ، بيروت ، ١٩٦١ .

- حزان ، حبيب ، **الأدب الأندلسي من الاحتلال إلى الترحال** .